الفصل الثالث

الرؤية الاجتماعية

❁❁❁❁❁

المبحث الأول: الأمراض والآفات الاجتماعية في الغرب.

المبحث الثاني: تصوير الصراع بين القديم والحديث في الشؤون الحياتية.

المبحث الثالث: العادات والتقاليد.

المبحث الأول

الأمراض والآفات الاجتماعية في الغرب

إذا قرأنا عن كثير من الأمراض الاجتماعية، والتي لا تعد في بلدانها أمراضاً، بقدر ما تعد ظواهر اجتماعية، كظاهرة الاغتصاب، أو اغتصاب الأطفال، وتفشي الجريمة، وبيع الأعضاء البشرية، وبيع الأطفال من البلدان الفقيرة إلى عائلات غريبة ثرية، والعنف في المدارس، وفي الشوارع، وفي مجال العمل، وإدمان الكحوليات، وانتشار المخدرات، وغيرها من الظواهر التي تستحق الدراسة.

فإذا انطلقنا من مركز تقليدي لأحد الظواهر الاجتماعية الشائعة، وهي تجارة الدعارة في مدينة باريس مثلاً، حيث إن هنالك حياً مشهوراً فيها، وهو الحي اللاتيني، والمعروف بأنه مركز لتجمع الغواني من كل حدب وصوب من أرجاء أوروبا[1]، كما يذكر زكي مبارك' فكثير من نساء الحي اللاتيني لسن فرنسيات الجذور، إذ منهن الألمانية والنمساوية والأسبانية والإيطالية والرومانية، وغيرهن من نساء أوروبا اللاتي اتخذن من فرنسا موطناً لهن[2].

---

(١)انظر: ذكريات باريس ١١٢.
(٢) انظر: المصدر السابق، ١١٥.

بل إن زكي مبارك يقول بأن الفرنسيات من بائعات الهوى قليلات جداً في هذا الميدان، ولم تظلم أمة من الوجهة الأخلاقية، كما ظلمت فرنسا بين الأمم الأوروبية، فأغلب الناس يكادون يتفقون على أن المرأة الفرنسية ماجنة خليعة، وذلك خطأ مبين، فأكثر الشعوب الأوروبية والأمريكية تنصب روافدها في باريس، فهي ملتقى طلاب الغواية من جميع الأجناس(١).

والحقيقة أني أخالف رأي مبارك أشد المخالفة، وأميل للرأي السائد عن بعض نساء فرنسا، فهي كما يقول عنها ملتقى الغواية من جميع أجناس الأرض، بؤرة فساد مزدهرة، وما أشيع عنها هذه الانطباعات المتشابهة إلا لصدق الإشاعات نفسها، والتي تقول بأن فرنسا ملتقى وأرض التغيرات الثقافية والاجتماعية والعادات والانحرافات السلوكية.

ولا ننكر مع هذا وجود أناس ذوي طبائع سليمة وأذواق رفيعة، وفطر جُبلت على الخير والنقاء، لكن الغالب أن فرنسا هي نقطة شاسعة المجال في التحولات، حيث عاصرت ومرت بتحولات اجتماعية كثيرة، جعلت منها مركزاً للتحولات الاجتماعية الأوروبية بصورة عامة.

فالحضارة الغربية أهملت العنصر الإنساني، ومالت إلى إشباع الغرائز بكل الوسائل المشروعة وغير المشروعة، وهذا ما أفرز ظواهر اجتماعية سيئة ترسخت في تلك المجتمعات.

---

(١)انظر: المصدر السابق، ١١٦.

هذه الصورة المألوفة لدى الغرب مرفوضة لدينا بحكم عقيدتنا، ونحن لا نرفض علاج هذه الظواهر، ولكن نرفض تشريعها وسن القوانين لها؛ لتصبح بعد ذلك أمراً يُمنع المساس به، وكأنما هي حقوق، وهذا هو الأمر المرفوض بعينه.

*****

من الظواهر الاجتماعية الشائعة **ظاهرة الانتحار**، وانتشارها في المجتمعات الغربية كملجأ ومهرب لعوارض الحياة وتقلباتها،وليس في الغرب فقط، بل وفي كل بلد متقدم سار سير الغرب في قيمه المادية البحتة، مثل أستراليا واليابان على سبيل المثال. ولقد استغربت وأنا أقرأ في مذكرات زكي مبارك ورسائله خلال إقامته بفرنسا طوال خمس سنوات، حديثه عن مشهدٍ انتحاري لشاب فرنسي معدم، يقول فيه "كنت أمس في الساعة الحادية عشرة صباحاً أمشي على شاطئ السين، فما راعني إلا فتى يلقي بنفسه في الماء. وسرعان ما تجمع الناس وفي دقائق معدودة جاء البوليس، وجاء رجال الإسعاف، وفي هذه الأثناء مرت بالخاطر أخيلة كثيرة وأطياف شتى من صور الحياة: من عسى أن يكون هذا الفتى؟ ومن أي طبقة؟ وما هي محنته؟ وكيف استسلم إلى المصير الفاجع؟ وكيف بدا له أن يودع باريس؟ وما الذي كان يمر بباله من نعماء هذه الدنيا وبأسائها،

وحين حملته رجلاه إلى هاوية الفناء؟ وفيمن كان يفكر؟ وإلا م كان يحن ويشتاق؟ وعلى من كان يعتب؟ وكيف كان يتمثل ظلام الهلاك؟ مرت هذه الأسئلة بالخاطر، مر الطيف، ثم رفعت بصري أتأمل ما أمامي، فإذا رجال الإسعاف قد نزلوا في فلك صغير يبحثون هنا وهناك عن جثة الغريق ولكنهم لا يهتدون، وبعد عشر دقائق عثرت أسنان الملاقط على جثة الغريق،فرفعوه، وما كاد يبدو وجهه حتى حسبه الناس ينوس، ورجوا أن يكون فيه رمق من الحياة. وجاء الطبيب فخلع عن المسكين ملابسه، وشرط أذرعته، فخرج الدم يتصبب، وبدأت عملية التنفس الصناعي في مهارة ونشاط. وكان الناس يشاهدون هذا المنظر في تطلع لا يصحبه ألم ولا حزن. أما أنا فقد وقفت ذاهل اللب انظر ما سيكون، منظر محزن يخلع القلوب، رأيت أن أنظر فيه أخلاق الناس في باريس، وقد أدهشني أن رجال الإسعاف كانوا يتضاحكون أحياناً وهم يجرون عملية التنفس، وزادت دهشتي حين رأيت المشاهدين يتبادلون بعض النكت في طمأنينة وهدوء، وبلغ الأمر أن فاه بعضهم بكلمة مضحكة فأغرق الناس في القهقهة بشكل مخجل مريب، حتى كاد البوليس يفرق جمعهم، ثم تركهم في غيهم يعمهون"[1].

(١) ذكريات باريس، ٥٣ وما بعدها.

- والذي لفت انتباهي في هذا المشهد الكئيب زمن الحادثة – في ثلاثينيات القرن الماضي– فحتى ذلك الوقت لم ينتشر اللجوء للانتحار كظاهرة مُقلقة، إلا أنه كان له فيما يبدو وجود مألوف، بدليل ردة الفعل الهادئة لمشاهدي الحادثة – عدا الكاتب طبعاً– والذين لم تبدُ عليهم معالم الفزع والإشفاق لهول ما جرى، وكأنهم ألفوا مشاهدة هذه الحوادث حتى لم تعد تحرك فيهم ساكناً.

- ومن الآفات المدمرة كذلك المخدرات، وهي آفة منتشرة في جميع دول العالم بنسب متفاوتة من بلد لآخر، ومن الأمثلة اللافتة – وهو مثال عنصري محض – ماتحدث عنه عبد الوهاب المسيري في أوائل الستينات الميلادية، ما عُرف في الولايات المتحدة بالصيف الطويل الحار[1]. وذلك نتيجة لانفجار صبر السود في أشهر المدن الأمريكية مثل سكان شارع هارلم في مدينة نيويورك، وهو شارع يفتقد لأقل معايير النظافة، حيث ترتع الفئران والصراصير فيه بحرية تامة. وكان بإمكان الحكومة الفيدرالية جمع أرتال القمامة المتراكمة ورشّ المبيدات، إلا أن الحكومة غالباً ما تتقاعس عن أداء هذا الواجب بالنسبة لفئة السود، حتى هاج السود ونزلوا للشوارع في مظاهرة الصيف

(١)انظر: رحلتي الفكرية ، ٣٢٠.

الطويل الحار، مما اضطر الحكومة للاستجابة وإرسال سيارات رش المبيدات وجمع القمامة[١] ويشير المسيري كذلك إلى أن الشرطة كانت تغض النظر عن تجار المخدرات، وتسمح لهم بممارسة نشاطاتهم "في حرية بالغة داخل أحياء السود، حتى تضمن تخديرهم وتحقيق الأمن الاجتماعي"[٢]

- على أن آفة المخدرات منتشرة في جميع طبقات المجتمع الغربي، حتى إن دولة كهولندا مثلاً، تباع فيها بعض أنواع المخدرات بصفة قانونية[٣]. ويأتي إليها الوافدون ممن يرغبون بتعاطي المخدرات في أجواء علنية، وتحت حماية القانون.[٤]

ومن آفة المجتمع الغربي كذلك، ظاهر العنف المستمر ضد المرأة، مثل شيوع السرقات الجبرية، والاغتصاب، وقد ذكر عبد الرحمن بدوي عندما زار مدينة نيويورك أن عامة السيدات في هذه المدينة يحرصن على وضع حقائب أيديهن خلف أعناقهن

---

(١) انظر: المصدر السابق ، ٣٢١.
(٢) المصدر السابق ، ٣٢١
(٣) انظر: رحلتي من الشك إلى الإيمان ، ٧
(٤) انظر: سائح في دنيا الله. عبد الوهاب مطاوع. الدار المصرية اللبنانية، القاهرة ط٣/ ٢٠٠٦م.٨٦.

بدلاً من وضعها على أكتافهن، أو ربطها برسغ أيديهن، كي لا يتعرضن لانتشار سارقي الحقائب المعروفين بسرعتهم.[١]

والواقع أن المجتمع الغربي ممتلئ حتى الثمالة بالأمراض الاجتماعية من كل شكل ولون. فالمشروبات الكحولية متوفرة في كل مكان، وبيع الأسلحة مُرخص به لأي شخص، والاختلاط بين الجنسين موجود إلى أقصى حد، وهكذا تتنامى هذه الأمراض الاجتماعية من دعارة وقتل وسرقة وعنف ومخدرات، ويكفي أن نعرف أنه من بين كل ٥٠٠ جريمة في أمريكا مثلاً، يتم حل ٤٠٠ جريمة فقط، وتبقى ١٠٠ جريمة بلا حل، هذا عن الجرائم المسجلة والمثبتة[٢].

ولا تكاد تخلو الصحف ووسائل الإعلام من الحديث عن الجريمة، حيث إن فئة الشبان الذكور هي الفئة التي تنفذ جرائم القتل والموت، ونسبة الانتحار بين الشباب تفوق عشرين ضعفاً مثيلتها في أوروبا وأربعين ضعفاً عن اليابان[٣].

---

(٥) انظر: سيرة حياتي ٢/٢٣٦.
(٢) أمريكا كما رأيتها، مختار المسلاتي ، مكتبة العلا ، الكويت ط ١ / ١٩٨٦م ،٢٥٤.
(٣) الغرب من الداخل، مازن مطبقاني، نادي أبها الأدبي، ١٩٩٧م، ٦١.

المبحث الثاني

تصوير الصراع بين القديم والحديث في الشؤون الحياتية

- هناك قاعدة معروفة في تاريخ المجتمعات،قاعدة حتمية تسري على كل مجتمع إنساني، ومفادها: إن حدوث أي طارئ عام يؤثر في حياة كافة شرائح المجتمع، كقيام حرب، أو قيام ثورة شعبية عارمة، أو حلول مجاعة، أو انتشار مرض وبائي عظيم، أو كارثة طبيعية، من زلازل وفيضانات، ونحو ذلك من الأحداث الكبرى في أي مجتمع كان. تشير هذه القاعدة لحتمية حدوث التغييرات الاجتماعية والثقافية [1]، عقب انتهاء تلك الكوارث الإنسانية العامة. وهذه من سُنن الله تعالى في الكون.

وإذا ما نظرنا إلى العالم في عصرنا الحاضر، وكيف تبدلت أحواله عقب انتهاء الحربين العالميتين الأولى والثانية،فإننا نرى كيف أنّ الحرب بدأت بين قطبين عظيمين، قطب شرقي يتزعمه ما كان يُعرف سابقاً بالاتحاد السوفيتي، وقطب غربي تتزعمه الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا الغربية.

(١) انظر: عوامل التغير الاجتماعي. قاسم حسين الحائري. دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر ، بيروت ط١ / ١٩٨٩م.

ولكن الحرب "آبت بنتائج غير منظورة ولا مُتصورة، فإذا كانت الحرب قد بدأت بين إمبرياليين طماعين نهابين يتناحرون على ملكية العالم، فقد خُتمت على أمّ رأسهم جميعاً، وتخلصت من براثنهم أكثر الشعوب المغلوبة في أفريقيا وآسيا. وحتى شعوب أمريكا اللاتينية لم تعد تقبل سيطرة الدولار بروح الاستسلام القديم، ثورة عالمية لم يتغير بها وجه السياسة والاقتصاد وحدهما، بل وجه الفكر والعلم والفن أيضاً"(١).

وهكذا تسارعت الأحداث المصيرية عقب انتهاء الحرب العالمية، فقامت حركات الاستقلال في شتى البلدان المغلوبة في أمريكا اللاتينية، كما في شرق آسيا، وفي العالم العربي،و في دول أفريقية، وهكذا.. حركات تحرر عالمية وثورات ترفض الانتماء لحزب شرقي شيوعي ملحد، أو غربي رأسمالي جشع.

وأُنشئت بعض الدول بما عُرف بدول عدم الانحياز، ودول رابطة أمريكا الجنوبية، ومثلها في أفريقية وآسيا، وهكذا.

ومن ناحية ثانية، حدثت تغييرات اجتماعية هائلة في كافة المجتمعات، فخرجت المرأة الغربية، ومن بعدها المرأة الشرقية، لمشاركة الرجل في سائر الأعمال. وازدهرت قيم تشجيع المرأة والمطالبة بحقوقها والمساواة مع الرجل والحرية المتزايدة، ولو على حساب الفضيلة والعفاف، وانتشرت الصداقة بين الجنسين بشكل بالغ.

(١) سندباد في رحلة الحياة. حسين فوزي. دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٨م، ١٢٣.

وقد رأينا في باب الرؤية الثقافية كيف اشتعلت نيرات الثورة الثقافية في أواخر الستينات، وكانت هذه الثورة بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير، فلم يعد هناك وزن كبير لقيم الأخلاق والعفاف، وانتشرت مفاهيم وحركات انفلاتية لم تكن تجرؤ في السابق على إظهار نفسها، والمطالبة بحقوقها المزعومة، ظهرت النساء المسترجلات والرجال المستأنثون فظهر الجنس الثالث، وانتشرت بسرعة كبيرة أيضاً عمليات تغيير الجنس وقلب الفطرة الإنسانية، وما يحدث في تلك المجتمعات الغربية من تغييرات ظاهرة وباطنة، يحدث لغيرها من المجتمعات الأخرى، بما فيها مجتمعاتنا العربية المسلمة، على اختلاف ماهية التغييرات الاجتماعية، ولكنها تحدث، ولابد أن تحدث، وتسري عليها قاعدة التغيير الاجتماعي متى ما تعرض المجتمع للكوارث الطارئة. ويبيّن عبد الرحمن بدوي أن أفضل طريقة لمعرفة وقراءة التغييرات التاريخية للمجتمعات، فيما حدث لمجتمعات سابقة بعيدة العهد بنا، ومجتمعات سابقة قريبة العهد، لازال بعض شهودها أحياء، هي أن "يتخذ المرء من تجربته الخاصة نموذجاً لمعرفة الحوادث التي وقعت"(١).

ولتقريب الصورة للذهن أستطيع الاستدلال بسهولة ويسر على سرعة عجلة التحولات الاجتماعية والثقافية الهائلة التي حدثت في مجتمعنا العربي والخليجي، وعلى وجه خاص السعودي، عقب انتهاء

(١) النقد التاريخي، (أنجلو أوسينوبوس، بول ماس، أمانويل كانت) ، ترجمة: عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات، الكويت ط١/ ١٩٧٧م ، ٣٠٦.

أزمة الخليج عندما غزت العراق دولة الكويت[1] في مطلع التسعينات الميلادية، في أزمة دامت لأكثر من ثمانية أشهر، واجتمع العالم بأسره مرات عديدة، واختلف مرات أكثر حتى انفراج الأزمة.

ولكن هل بقيت مجتمعاتنا الخليجية بعد أزمة الخليج هي نفسها قبل الأزمة؟ بالطبع لا.

فقد حدثت تغييرات اجتماعية هائلة، ففتحت أبواب البث الفضائي عبر القنوات الفضائية، واطلع الناس على ما يدور حولهم في بلدان مجاورة وبلدان بعيدة، وزاد الاتصال بين الناس على صعيد العالم أجمع بعد أن أصبحت الشبكة العنكبوتية –الإنترنت– من لزوميات البيت العربي، وانتشرت الهواتف المحمولة، وزاد استعداد الناس لاستماع بعضهم بعضاً عبر هذه القنوات الاتصالية الحديثة السهلة؛ لتتقارب وجهات النظر، ويترسخ مبدأ الحوار، وحرية الرأي، للوصول إلى أرضية مشتركة من التلاقي والتفاهم، ومن ثمَ البناء فالإنجاز.

---

(١) في عام ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م، قام العراق في ظل النظام السابق برئاسة الرئيس الراحل صدام حسين بغزو دولة الكويت، في كارثة سياسية ألقت بظلالها على كافة الأصعدة والمجالات بين الدول العربية والغربية. وتأثرت العلاقات البينية بين الدول العربية خاصة، وقد سميت هذه الحادثة بأزمة الخليج. واستمر الاحتلال قرابة ثمانية أشهر قبل أن تتدخل القوات المتحالفة بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية لتحرير الكويت، وقد نجم عن هذه الحرب آثارً بيئية وتحولات سياسية واقتصادية واجتماعية.
و قد صدرت عشرات الكتب العربية والأجنبية عن هذه الحرب. للإطلاع، انظر: البراهين: دراسة في أضرار الغزو العراقي على دولة الكويت ، عادل عيسى اليوسفي. دار الفلاح للنشر والتوزيع ، ط٢ / ٢٠٠١م.

ومن مجمل هذه التغييرات السريعة وهي تغييرات قوية، قفز المجتمع السعودي والخليجي عامة قفزة كبيرة[1] في مجالات الرأي وصقل الرأي، وزادت حرية طرح موضوعات حساسة على مائدة النقاش الإعلامي الرسمي.

ولاشك بأن الصراع بين القديم والحديث في الشؤون الحياتية تكمن أهميته في خلفية هذا الصراع، وهي خلفية نابعة من مرجعية ثقافية قبل كل شيء، وعندما كانت هالة سرحان في الولايات المتحدة في منحة دراسية من جامعة لويفيل لتحضير درجة الدكتوراه، وتدريس مادة الحركة المسرحية للطلبة الأمريكان وغيرهم في الجامعة، ضايقها عدم التزام الطالب الغربي بالمظهر الجاد في الهيئة والسلوك لأي طالب علم:

"اندهشت حين وجدت الطلبة يستلقون في استرخاء على أرض الفصل الدراسي، يحتسون القهوة والكوكا كولا ويمضغون اللبان، ويناقشون الأستاذ في جدية صارمة في موضوعات التفكيكية والبنيوية. اندهشت واحترت، هل هذه بساطة أم استهتار؟ هل الاحترام سلوك ظاهري أم ممارسة ضميرية؟ هل الالتزام مبدأ أم واجب؟"[2].

---

(١) للاطلاع على هذه التغيرات والتحولات ، انظر: التحولات الاجتماعية والاقتصادية وتأثيراتها في بعض القيم الاجتماعية بالمجتمع السعودي. شريقي الجابري. جده ط١ / ١٤٢٣ هـ.

(٢) أمريكا خبط لزق، ٧٨.

فالأستاذة المصرية الآتية من بيئة مغايرة تماماً، فيما يتعلق بتقدير الجامعة واحترام الأستاذ، من بيئة تتغنى ببيت الشعر الشهير:

قـــم للمعلـــم وفّـــه التبجـــيلا كـــاد المعلـــم أن يكـــون رســـولاً[1]

لم تستطع تقبل مثل هذه السلوكيات المتساهلة جداً مع أستاذ المادة، فقد تغير العصر وتبدلت أحوال أبنائه، وطلاب الأمس فـــي الدراســـات العليا في أمريكا لم يعد لهم وجود ظاهر بشكل ساطع. ولعل مـــا رأتـــه الأستاذة هالة من تبسط الطلاب فـــي الفصـــل الدراســـي فـــي هيئـــتهم واسترخائهم، ثمرة من ثمار الثورة الثقافية ، وأنا شخصياً لا أعتقد بسوء وضع المشهد السابق، فالمهم جدية الطلاب في نقاشـــاتهم، بـــأن يكـــون الحوار الجاد بين الأستاذ وتلاميذه وموضوع الدرس هو محط الانتبـــاه الأساسي.

وقد رأينا سابقاً كيف انقلبت المفاهيم والقيم الأخلاقية بعـــد قيـــام الثورة الثقافية أواخر الستينات الميلادية للقرن الماضي[2]، ورفع الغرب شعارات التحرر الكاسحة والانعتاق من ربقة المفاهيم القديمة الجامدة.

---

(١) البيت للشاعر أحمد شوقي في ديوانه الشوقيات، ج١/ ١٨٠.

(٢) من المفيد التذكير بأن قيام الثورة الثقافية أواخر الستينيات الميلادية ، شكّل منعطفاً حاداً بين القديم والحديث. وقد سلطت الرؤية الثقافية في هذه الدراسة الضوء على تلك الثورة المتمردة على تعاليم الدين والمجتمع وكافة المرجعيات الثقافية. راجع الفصل الأول ، المبحث الثالث.

وكان من الطبعي أن تنعكس آثار هذا الانقلاب الثوري على شتى مظاهر المجتمع، بدءاً من الزي والهيئة الخارجية، وحتى أكثر المفاهيم قداسة.

ويساعدنا النص التالي لحسين فوزي على فهم كيف ابتُذل الاحتشام وما يمتُ إليه، واستبدل بمفاهيم العري والانفتاح على الحياة، من خلال تكريس ثقافة الملابس القصيرة والتعري الفاضح. يتحدث فوزي عن مدى تغير الحياة من النقيض إلى النقيض، حياة كان هو شاهداً عليها وعلى متغيراتها الجذرية، يقول:

"أكتب هذا وأمامي، تحت لوحة المكتب الشفافة، إعلان ملون صغير عثرت عليه داخل كتاب قديم، تدعو فيه شركة سكة حديد باريس إلى زيارة نيس وموناكو و... تذكرة ذهاباً وإياباً مداها عشرون يوماً، إبان شتاء ١٩١٤م... والصورة على رأس الإعلان من أصدق ما يُمثل حقبة الرخاء والهناء: أربع سيدات جميلات، بقبعاتهن الواسعة الأطراف، طويلة الريش، وفساتينهن الحشمة لا تكشف إلا عن أقدامهن الصغيرة في أحذية كحوافر الغزلان، وفتحات مثلثة بين الكتفين والنحر، أربع سيدات في ألوان هادئة يهرعن فوق بساط سندسي إلى لقاء النسيم الحالم يلصق أثوابهن بأجسادهن، ولكن في منتهى الحشمة والوقار، وخلفهن نخيل تتمايل أعطافه وتهتز أغصانه تحت لمسة الشمال فوق الريفيرا.

ما أكثر ما أقارن هذه الصورة الساحرة في سذاجتها وحشـــمتها، وبين الإعلانات الحديثة، أو المقالات المصورة التـــي تنشـــرها مجلـــة "لايف" في سلسلاتها السياحية، ذلك كان عـــالم الاســـترواح والهـــدوء والأمن، جنات عدن فوق الأرض، في مقابل جمال زائف حتى في عريه وفحشه، وتواليت وأصباغ تحاول كلها – دون جدوى- أن تُخفي القلـــق والفزع والأعصاب المنهكة بالسهر والانحلال"(١).

فهناك فرق شاسع بين نساء أوائـــل القـــرن العشـــرين، ونســـاء منتصفه، نساء ما بعد الحرب العالمية الثانية، فرق لا يدركـــه إلا مـــن عاش الحقبتين، ورأى كيف تحولت المرأة بشدة إلى سلعة إعلانية رائجة لزيادة المبيعات الاستهلاكية، وتنشيط الحركة السياحية، وغيرهـــا مـــن مناشط المجتمع.

والحقيقة أن الصراع الدائم بين ما كان عليه الوضع، وما سيؤول إليه، صراع حتمي وواجب، متى ما كان التغير والتحول هو الأفضـــل والأصلح للمجتمع.

والصراع بين القديم والحديث لا يقتصر على الغرب، بل يتعـــداه إلى كافة مجتمعات العالم، فهذه سنة كونية، وقانون حتمي لأي مجتمع.

---

(١) سندباد في رحلة الحياة: ١٢٤.

وأود الانتقال إلى صراع يتعلق هو الآخر بالهيئة الخارجية، ويحمل دلالات تغريبية، فقد تأثر المجتمع المصري والعربي عامة بموجات التغيير في هندامه ومظهره العام.

وقد قرأت في سيرة الشيخ مصطفى عبد الرازق التي يصور فيها رحلته، ما يُشير إلى هذا الاعتقاد، عندما تناول موضوع انتشار اللباس الإفرنجي في مصر، وانحسر بالمقابل انتشار الجلباب والعمامة.

فهو يعزي نفسه في كيفية انقلاب أكثر الناس في بلاده على لابسي العمامة، التي كانت مفخرة لصاحبها وإكليلاً على رأسه، وهالة تحيط محياه، فأصبحت بعد ذلك يصدر عنها وجوه النساء، وتعبس لها وجوه الرجال، وآية التأخر والضعف في نظر الأجيال الحديثة، فكثر خالعوها، وقلّ لابسوها، وأوشكت أن تزول في تيار المدنية المتدافع.

ويعترف الشيخ في أثناء حديثه عن العمامة، أن كثيراً من لابسي العمامة أضروا بها بسلوكياتهم، وظلموها بأفكارهم[1].

والحقيقة أن الإعجاب بالملابس الغربية، وكل مظهر غربي ليس وراء شكوى الشيخ فقط، بل هو ظاهرة لكافة من يذهب ويعيش في بلاد الغرب، فضغط تلك الحياة في تلك المجتمعات كفيل بتليين أشد العقول تصلباً، وقد ذكرت رضوى عاشور في أثناء رحلتها للدراسة في أمريكا

(١) انظر: ذكريات مسافر، ٤٦.

أن جماعة السيخ الهندية مثلاً، والمعروفة بلبس العمامة لا تخلعها أبداً، رأتها بعد ذلك، بعد أن أقامت هذه الجماعات عشرات السنين في الغرب، وقد اختلفت هيئتها، فخلعت العمامة وحلقت لحاها المرسلة[1]، تماماً كما فعل كثير من الطلاب المصريين وغيرهم من العرب، الذين تهندموا باللباس الغربي، وعافوا ما ورثوه عن آبائهم وأجدادهم من اللباس العربي المعروف في مجتمعاتهم، وهذا مظهر من مظاهر الصراع في اللباس، حيث التجاذب والحيرة والتردد في العيش بالهيئة العربية أو الهيئة الغربية.

والجدير بالذكر أن للهيئة الخارجية دلالة واضحة على التوجه العقلي والثقافي لصاحبها، ولابن خلدون رأي في تشبه المغلوب بالغالب.يقول ابن خلدون في مقدمته الشهيرة: "إن المغلوب مولع دائماً بتقليد الغالب، فالمغلوب يتشبه أبداً بالغالب في ملبسه ومركبه وسلاحه، بل وفي سائر أحواله" [2].

وهو رأي سليم ولاشك، وأذكر أني قرأتُ إبان عصور الازدهار للحضارة الإسلامية فيما مضى، حينما كانت شمس الحضارة تشرق على العالم، كان شباب أوربا آنذاك مولعين بكل

---

(١) انظر: الرحلة، ١٥٤.

(٢) المقدمة. عبد الرحمن بن خلدون. (ت ٧٣٢هـ). مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت ط١ / ١٤٢٤ه ١ / ١٥٦.

(٣) انظر: دراسات في الأدب العربي الحديث ومدارسه ، محمد عبد المنعم خفاجي ، دار الجيل ، بيروت ط ١ / ١٤١٢هـ١، /٨.

ما هو عربي ولعاً شديداً، بل وبعضهم كان يرطن بالعربية[٣] تماماً كما يرطن أبناؤنا الآن، بلغات الدول المتقدمة إعجاباً بها، وتحمساً لكل ما هو غربي، أما الآن، وقد انعكست الآية، وأصبح ذلك الغالب مغلوباً، فقد حدث لثقافة بني جلدته ما حدث للأوروبيين في العصور الوسطى.

فخلفية هذا الصراع والتجاذب تكمن في المفهوم الثقافي للمتلقي، لما يحيط به من المستجدات الاجتماعية المتنوعة.

وقد أشار الكاتب أحمد أمين إلى هذا الموضوع، فقد كان يلبس الجلباب والعمامة منذ طفولته ودراسته بالأزهر، وحتى تدريسه بكلية الآداب. ثم آثر بعد ذلك مجاراة التطور، فخلع الجلباب والعمامة، ولبس البدلة والطربوش، بعد أن ناقشه صديق له بشأن العمامة موضحاً له بأنها رمز لرجل الدين، وأحمد أمين ليس برجل دين، بل معلم للغة العربية وللأدب، واستمرت المناقشة طويلاً حتى اقتنع أحمد أمين برأيه، وهو يقول: "إن عامة الناس في زمانه يُجلّون العمامة ظاهراً لا باطناً، ويحترمون لابسي الطربوش"[١].

وذكر أنه لاقى صعوبات جمة بسبب العمامة، فقد ذهب إلى فندق ذات مرة، فأخبره مسؤول الفندق أن ليس له مكان خالٍ،

(١) حياتي: ٢٠١.

وإذا بمطربش يأتي بعده، فيُوجد له ذلك المسؤول مكاناً في الحال[١].

وفي حادثة أخرى يذهب إلى مكتب البريد فيقف في الطابور، وإذا بمطربش يأتي فيقدّمه رجل البريد عليه[٢].

ومرة ثالثة في مكان آخر، يتهيأ لركوب الدرجة الأولى في الترام، فيقول الكمساري "تعال هنا" مشيراً إلى الدرجة الثانية[٣].

ومرة رابعة يذهب إلى مقهى، ومعه صديق مطربش فيُسمح للمطربش بالدخول، ويمنع هو، وهكذا..

بل ذكر أنه عندما أراد الزواج، وقفت العمامة حجر عثرة في الطريق، يقول: " فكم تقدمت إلى بيوت رضوا عن شبابي، ورضوا عن شهادتي، ورضوا عن مرتبي، ولكن لم يرضوا عن عمامتي" [٤].

ولم يكن النزاع بين العمامة والطربوش والقبعة بعد ذلك نزاع أشكال وموضات تأتي وتذهب، بل كان كما أوضح مصطفى عبد الرازق

---

(١)انظر: المصدر السابق، ٢٠١.
(٢)انظر: المصدر السابق، ٢٠١.
(٢)انظر: المصدر السابق ، ٢٠١.

(٤)المصدر السابق، ٢٠١.

"تنازعاً بين صور مختلفة من التفكير والـذوق، يريـد كـل منهمـا أن يسود"[١].

فقد هبّت رياح التغيير الثقافي والاجتماعي على أركان المجتمـع وزواياه. حتى إن طلاب كلية دار العلوم ذات التوجهات المحافظة، قاموا بمظاهرة احتجاج "حتى يسمح لهم بخلع العمامة والجبة والقفطان، ولبس الطربوش والبدلة الأفرنجية بدلاً منها"[٢]، أسوة بزملائهم فـي الكليـات الأخرى.

وهكذا، تدريجياً ومع مرور الزمن، واجـه الطربـوش مصـير العمامة لتحل مكانه القبعة الإفرنجية، أو كما أسموها (البرنيطـة) التـي قُوبلت هي الأخرى بالاعتراضات، لاسيما وأنها آتية من الغرب، فهـي ليست لباساً متوارثاً من الآباء والأجداد كالعمامة، وليست كـالطربوش دلالة انتماء لدولة الخلافة العثمانية، وكلاهما (العمامة، الطربوش) لباس إسلامي شرقي صميم.

ولكن القبعة نتاج وافد وغريب تماماً. وكانت أغلب الاعتراضات عليها منطلقة من هذا المحور.

ونستطيع أن نرى من جملة هذه المواقف كيف أنه كـان هنـاك صراع حقيقي بين اللباس العربي واللباس الإفرنجي، في ذلـك الوقـت

---

(١) مذكرات مسافر، ٧٧.
(٢) أوراق العمر- سنوات التكوين- لويس عوض، مكتبة مدبولي، القاهرة (د.ت)، ٦٢٧.

وتلك المرحلة. فاللباس التقليدي كان يرمز لدى أغلب الناس بالرجعية والتزمت والانغلاق، وعلى نقيضه كان اللباس الإفرنجي يعني التطور والتقدم والعصرية، وهذا غير صحيح أبداً، ولكن العيون والعقول التي ألفت اللباس التقليدي لا ترى جماله ووقاره.

وأرى أن مصطفى عبد الرازق عندما أشار إلى أن كثيراً من لابسي العمامة أضروا بها بسلوكياتهم، فنفر عامة الناس منها جملة وتفصيلاً، كان محقاً بدرجة رئيسة(١).

وهذا الرأي لا يتناقض بالضرورة مع رأي ابن خلدون عن سبب ولع المغلوب بالتشبه بهيئة الغالب، بل قد يوجد أكثر من سبب وراء هذه الظواهر في كافة المجتمعات.

وهناك صراع آخر قد يكون مرجعه ثقافياً دينياً، مثل النقاش الذي دار بين الشيخ مصطفى وصديقه، حول استخدام وسيلة مواصلات جديدة وهي الطائرة، إذ إنهم درجوا على استعمال الباخرة مع أنها بطيئة مقارنة بالطائرة.

ومع ذلك عندما ظهرت الطائرة وانتشرت، خاف بعضهم من استعمالها خشية مزاحمة الملائكة في السماء.

---

(١) انظر: مذكرات مسافر، ٤٦.

وأعتقد أن كل اختراع جديد يظهر للناس يثير جدلاً بين مؤيديـــه ومعارضيه، حيث يفضل المعارضون ما ألفوه وعاشوا فيه برغم محاسن الجديد، فهم يخشون العواقب، والمعروف أن لكل شيء مزايا ومثالب.

المبحث الثالث

العادات والتقاليد

هل نستطيع أن نقول: إن العادات والتقاليد في جميع البلدان متشابهة؟ بالطبع لا، فما يعدّ لدينا مألوفاً، كأكل لحوم البقر، قد يُعدّ عند غيرنا جريمة، في الهند مثلاً لمن يقدسون هذا الحيوان ويحرمون أكله.

ولكني أميل إلى القول بأن المسألة نسبية من شعب إلى شعب، ومن أمة لأخرى.

*****

ولاشك أن تنوع الشعوب واختلافها يبرز تنوعاً للتقاليد والعادات السائدة في الغرب.

وليس هذا المبحث لاستقصاء تلك التقاليد، بقدر ما هو استطلاع لبعضها عن كثب.

*****

عيد الميلاد:

في أواخر شهر ديسمبر من كل عام في السنة الميلادية، يحل عيد الميلاد، وهو بحسب الاعتقاد المسيحي ميلاد المسيح عليه السلام.

وعادة ما يكون الطقس في هذا الوقت من العام أبرد مـــا يكـــون، وتكتسي الأشجار والمنازل والطرقات برداء ثلجـــي ســـاطع وكثيـــف، لتصبح الطبيعة لوحة فنية باهرة، يتناغم فيها بياض الثلوج مع مصابيح الإنارة بأنوارها الساطعة، وشرائط الزينة الملونة، المعلقة على أبـــواب المنازل والمحلات، وتنتشر مجسمات العربات الجليدية والخشبية التـــي تجرها حيوانات الرنة القطبية بقرونها المتشعبة.

ويحرص الجميع في هذا العيد على إحضار شجرة الصـــنوبر أو جزء منها لتعليق الهدايا وبطاقات المعايدة المتبادلة بين أفراد العائلة.

وقد عايش أحمد عطية الله في ثلاثينات القرن الماضي موسم عيد الميلاد في لندن، ورأى الاستعدادات الهائلة لهذا العيد، وكيف تحـــرص ربة البيت الإنجليزية على طبخ الديك الرومي المزين بـــاللوز والجـــوز

والبندق، ليجتمع بعدها جميع أفراد الأسرة حول مائدة العيد الحافلة، يتوسطها الديك العتيد[١].

وفي المساء يجتمع أفراد الأسرة مع أصدقائهم في غرفة الجلوس الرئيسة، حيث تدار أنغام الجرامفون، وتبدأ الأحاديث، ويبدأ الرقص كذلك، ويتنوع الرقص ما بين القديم التقليدي كالفالس، والرقص الحديث بأنواعه الصاخبة[٢].

ومن أبرز الشخصيات الملازمة لعيد الميلاد شخصية سانتا كلوز، وهو صديق الأطفال، وهو شخصية خيالية مبتكرة لتلبية أمنيات صباح العيد، يقول عطية الله عن هذه الشخصية:

"شيخ مرح، له لحية متدلية، بيضاء كالثلج، كثلج عيد الميلاد، يرتدي جلباباً وطرطوراً أحمر اللون الزاهي الذي يحبه الأطفال، يزور هذا العم كلوز، الأطفال في كل عام، في ليلة عيد الميلاد، ولا يجد طريقه إلى أطفاله الأعزاء، إلا عن طريق مدخنة البيت، يهبط منها دون أن يدق الأبواب أو يقرع النوافذ.

وهذا الشيخ المرح، لا يهبط من المدخنة إلا محملاً بكيس قد أحنى ظهره، ملأه بكل ما أمّله الطفل قبل أن ينام، لأن هذا العم الأسطوري، لا

(١) انظر: لندن. أحمد عطية الله. القاهرة ١٩٣٤م، ٢٨٠.
(٢) انظر: المصدر السابق ٢٨٠.

يزور أصدقاءه إلا وهم نيام، فيضع تحت وساداتهم الجوارب التي ملأها بهذه الهدايا، أو يحفظها لهم في أحذيتهم خلف الأبواب، حتى إذا استيقظ الطفل مبكراً عرف أن العم كلوز قد زاره وهو نائم"[١].

وهذه الشخصية المبتكرة من مصادر إذكاء خيال الأطفال في طلب أمنياتهم، وليس بالضرورة أن تكون الأمنية بسيطة بحيث يحتويها جورب واسع أو علبة مُغلفة، بل ربما تجاوزت ذلك إلى إمكانية تحقيق حلم الطفل برؤية أحد والديه إن كانا منفصلين، أو قريب له وعزيز لديه، ونحو ذلك.

والقصة الخرافية بأن سانتا كلوز يأتي عبر مدخنة البيت محملاً بهداياه لجميع الأطفال، تعكس وجهاً لوهج وسحر عيد الميلاد الذي تتحقق فيه أمنيات الأطفال، مهما بعدت أو صعبت.

وقد تطورت شخصية سانتا كلوز لتصبح شخصية عالمية تسويقية مختصة بعالم الأطفال وتحقيق رغباتهم في يوم العيد المنتظر. وهذه الشخصية مع ما يصاحبها ألوان زاهية وعربة الأحلام الخيالية التي يجرها مجسم حيوان الرنة القطبي كلها من لوازم الطقوس الاحتفالية بأعياد الميلاد.

---

(١) المصدر السابق ٢٧٥.

وربما يكون عيد الميلاد أكثر الأعياد احتفالية وبهرجة، كونه يستند إلى أساس ديني، فيحتفل العالم المسيحي بعيد الميلاد، ومع أن الصورة السابقة التي عايشها أحمد عطية الله منذ زهاء قرن ماضٍ، إلا أنها ما زالت شائعة للاحتفال بهذا العيد إلى يومنا هذا.

ولا تكاد تمر أيام معدودة على عيد الميلاد حتى تبدأ السنة الميلادية الجديدة، تسبقها الاستعدادات من جديد للاحتفال برأس السنة الميلادية، وهكذا ومع توالي الأعياد تشتعل حمى الشراء لدى الجميع(١).

ومثلما يُفضَل الاحتفال بعيد الميلاد داخل المنزل ضمن تجمع أفراد العائلة، يُفضَل كذلك الاحتفال بعيد رأس السنة خارج المنزل في المقاهي والحانات، في مجموعات متحلّقة مترقبة لعقارب الساعة المتجهة للساعة الثانية عشرة ليلاً، بداية السنة الميلادية الجديدة(٢)، لترتفع الأيادي الحاملة لكؤوس الشراب، كل يُحيّي الآخر، ويُسمي نخبه للأيام القادمة، ويرفع من حوله كؤوسهم يشاركونه في تبادل الأنخاب(٣).

وعدا هذين العيدين الأساسيين في الغرب، هنالك أعياد أخرى تختص بها كل دولة في مناسباتها الوطنية ومآثرها التاريخية.

---

(١) انظر: المصدر السابق ٢٧٦.
(٢) انظر: المصدر السابق ٢٨٠، ٢٨١.
(٣) انظر: المصدر السابق ٢٨٠ ، ٢٨١.

*****

وهناك أعياد أخرى ذات طابع دنيوي بحت، مثل أعياد الجمـــال، للاحتفال بجمال المرأة، وتحدث زكي مبارك في ذكرياته عن عيد الملاح الذي شهده في باريس، وكيف اصطف الناس – وكان مـــن ضـــمنهم– لرؤية جميلات فرنسا من الآنسات الصغيرات، وقد أُخذ بجمال الفتيـــات ذوات البشرة البضة الوردية واللحاظ الناعسة، فأخذه العجب مما شـــاهد من هذا الجمال المعروض للناظرين. وهو كأديب مرهف الشعور يؤمن بأن كل معروض مهين. وسرعان ما يتضح له أن هـــؤلاء الحســـناوات مُسوِّقات لإعلانات تجارية في سبيل التنويه بالمتاجر الفاخرة والراقية.

وكان في تأمله لهن يحادث نفسه:

"أكذلك يعرض الحسن في سوقكم يا أهل باريس ؟

وقفت أتأمل هذا الحُسن المعروض في حسرات وزفرات، لأنـــي أعلم أن كل معروض مهين. والحُسن أجدر بأن يُرفـــع عـــن مـــواطن الهوان، ثم مرّ بالنفس خاطر بدد من آفاقها سحائب الحـــزن، ذلـــك أن الجمال لئيم، ومن ذا الذي يجهل لؤم أهل الجمال؟

الجمال لئيم لأنه لا يؤمن بغير الجاه والمال، ونحن قوم لم نُـــرزق غير الشعر والأدب والخيال، فلا حظّ لنا ولا خلاق في دولـــة الجمـــال،

فليخضع الحسن صاغراً لأصحاب المتاجر والملاهي، ولأنهم يملكــون منابع الثروة، ولننظر إليه لاهين شامتين بما رُزئ به من التسخير الشائن في شوارع باريس.

أيها الجمال!

أنت لا تعرف من ينسج في سبيلك روائع القصــائد والرســائل، ولكنك تخضع في ضراعة لمن يحولك مبهرج الأثواب. فامض في هوان أيها الجمال اللئيم إلى حيث اللئام من أرباب المال"[١].

والنص يمتلئ بزفرات زكي مبارك وأسفه علــى مرابــع الصــبا والجمال، وهي تتحول لأبواق إعلانية تروج للسلع الفاخرة، فتنغرس في ذهن المتلقي/ المشتري، مشاعر الإغراء والجاذبية للسلعة المعلن عنهــا أياً كانت تلك السلعة.

ويبدو هذا الأسلوب في الدعاية ناجحاً جداً، ليتحــدث عنــه عبــد الوهاب المسيري بعد أكثر من تسعين سنة من حديث زكي مبارك، يقول المسيري: "انظر إعلان هذه السيارة: تسير السيارة ثم تخرج منها فتــاة رائعة الحسن وتطلب منك ألا تتردد في شرائها: السيارة/ الفتاة"[٢].

(١) ذكريات باريس، ٢٢٦ وما بعدها.
(٢) رحلتي الفكرية، ٢٦٢.

وليس بدعاً ما تنتهجه شركات الإعلان بـــربط المـــرأة الجميلـــة بالسلعة المراد بيعها في صورة إعلانية زاهية، هو كما أراه نـــوع مـــن الرق، تكون المرأة الجميلة فيه هي المسترقة أولاً وأخيراً.

*****

الشاي الإنجليزي:

من التقاليد الإنجليزية الموروثة، شاي الساعة الخامسة.

ففي الساعة الخامسة مساءً يتناول الإنجليزي الشاي مع قطعة من الكعك.

وتوجد في لندن مئات بل آلاف المشارب الخاصة لتقديم الشـــاي للمرتادين، وهذه المشارب أندية ومراكز تُبرم فيهـــا الأمـــور وتُعقـــد. يقصدها أرباب الأعمال والرفقاء والأصدقاء والمحبون، ويأتيها الطلبـــة كذلك للدراسة والاستذكار [١].

والجدير بالذكر أن هنالك شركات مختصة بتخريج النادلات للقيام بخدمة المرتادين على أفضل وجه[٢].

---

(١)انظر: لندن: ٢٤٤.
(٢)انظر: المصدر السابق، ٢٤٦.

وقد يرافق تقديم الشاي وجبة خفيفة من البطاطس والسمك أو اللحم البارد، أو الكعك، ونحو ذلك[١].

وقد وصف أحمد عطية الله – في أثناء وجوده في لندن– جلسة تناول الشاي بالجلسة الهنيئة المريحة الدفيئة، وكان ذلك في مساء يومٍ بارد ورياح غاضبة، فهرع لمطعم سمك بالقرب منه:

"جلست لألتهم طبقاً من فاخر السمك كان أمتع ما أكلته، ولأشرب قدحاً من الشاي كان أفخر ما شربته، ولأشعل غليوني فكان أمتع جلسة عرفتها، لقد كنت أشعر بأن الكمال الإنساني قد تمثّل في شخصي، وأن سعادة الأرض قد هبطت على كتفي"[٢].

ويظهر أنه كان لبرودة الأجواء وتلاطم الرياح وصفيرها دور حاسم في تميز هذه الجلسة وروعتها عند الكاتب.

*****

وينبغي معرفة أن تناول شاي الأصيل منتشر في أرجاء أوروبا وليس إنجلترا فحسب. وربما تكون إنجلترا بتقاليدها المتوارثة جيلاً بعد جيل قد أثرت وأثّرت على جيرانها من البلاد حولها. لا سيما وأن

(١)انظر: المصدر السابق، ٢٤٨.
(٢) يوم في أوروبا. أحمد عطية الله. مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ط١ / ١٩٣٧م، ٨٨.

الإنجليز لازالوا متشبثين بمسمى الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس، حتى بعد أن دالت تلك الإمبراطورية، وغابت شمس مجدها.

إلا أن الغريب أن بلداً لا يبتعد كثيراً عن الشواطئ البريطانية، وهو بلجيكا، لا يحتفي كثيراً بشرب الشاي ولا حتى القهوة.

فالبلجيكيون لا يشربون الشاي كمعظم شعوب العالم، ولا يدمنون القهوة كالفرنسيين والألمان(١).

ففي إحدى الرحلات البرية التي قطعها عبد الوهاب مطاوع مع بعض رفاقه، منطلقين من باريس بالسيارة للذهاب إلى هولندا، عابرين الأراضي البلجيكية أولاً، يقول:

"اضطررنا للسير في بعض الطرق الجانبية في بلجيكا، بسبب عطل مؤقت في الطريق الدولي، وأسعدني ذلك كثيراً؛ لأنه يتيح لي رؤية الحياة في هذه الدولة التي لم أرها من قبل.

ألحَ عليَّ نداء الشاي الساخن، فطلبت التوقف في أول قرية بلجيكية، واتجهنا إلى بار وكافتيريا رأيناهما، فخرجت إلينا سيدة بلجيكية بدينة، وطلبت منها فنجاناً من الشاي، ففوجئت بها تسألني فيما يشبه الاستنكار:

(١)انظر: سائح في دنيا الله، عبد الوهاب مطاوع، ٨٣.

–هل تريد شاياً ساخناً؟

فأجبتها بالإيجاب، فاعتذرت على الفور بعدم وجود أي نوع من أنواع الشاي الساخن والبارد لديها! فطلبت فنجاناً من القهوة الفرنسية "إكسبريسو" ففوجئت بها تقول في تعجب:

إننا في قرية صغيرة لا نعرف مثل هذه الأشياء. فضحكنا بابتهاج وسألناها عما تستطيع أن تقدمه لنا عدا المشروبات الكحولية، فأجابتنا بأنها تستطيع أن تصنع لنا قهوة أمريكية.. وتهللنا للخبر.. وبعد لحظات جاءتنا بفنجانين من القهوة، لم نكد نتذوقها حتى أعدناها إلى مكانها في صمت، ودفعنا الحساب وانصرفنا ضاحكين، فقد كانت رائحة العطن تفوح من القهوة البايتة التي فسدت حبوبها من طول التخزين، ولم تجد صاحبة البار من تقدمها له سوانا"[1].

وقد تكرر الموقف معهم عند طلبهم للشاي أو القهوة في قرية أخرى، وقوبل طلبهم هذا بالدهشة والاستغراب.. حتى عرفوا بعد ذلك أن المشروب المفضل في بلجيكا هو شراب الشعير (البيرة).

*****

(١) المصدر السابق، ٨٢ ، ٨٣.

ومما يدخل في جانب العادات كذلك: الطعام وطريقة تناوله، وهو موضوع حيوي ومشوق لتنوع عادات الشعوب وأساليبها الغذائيـــة، مـــا يجعل بعضها غريباً وطريفاً لدى الآخرين، فبعض الشـــعوب تســـتخدم السكّر والفواكه في إعداد الوجبات الرئيسة في اللحوم والمرق، وبعضهم يستخدم الشيكولاته في إعداد بعض أطباق الدجاج مثلاً، وهكذا يشـــتهر الغرب بإعداد أنواع الحساء الغريب على المتذوق العربي، مثل حســـاء السلحفاة وحساء أرجل الضفادع، وهذه الوجبات أوروبية المنشأ بالأصل، وتشتهر فرنسا بطبق الحلزون أو ما يعرف بالحلازين الفرنسية.

وغيرها من الوجبات التي ربما تُشكل ما يشبه الصدمة لدى الوافد العربي.

- وتختلف أساليب تناول الطعام ما بين استخدام اليد مباشرة، أو الملاعق والسكاكين، أو استخدام العيدان الرفيعـــة عنـــد شعوب الشرق الأقصى، وهكذا.

ويذكر رفاعة رافع الطهطاوي أن للطعام لدى الفرنســـيين آدابـــاً متعارفاً عليها عند الجميع، فهم لا يســـتخدمون اليـــد مباشـــرة لتنـــاول

طعامهم، بل هنالك عِدة من الأدوات الخاصة بكل إنسان، ولا يفترشون الأرض لتناول الطعام، بل يتجمعون حول طبليات عالية، يقول:

"ثم جاؤوا بطبليات عالية، ثم رصّوها من الصحون البيضاء الشبيهة بالعجمية، وجعلوا قدّام كل صحن قدحاً من القزاز، وسكينة وشوكة وملعقة، وفي كل طبلية نحو قزازتين من الماء، وإناء فيه ملح، وآخر فيه فلفل، ثم رصّوا حوالي الطبليات كراسي، لكل واحد كرسي، ثم جاؤوا بالطبيخ، فوضعوا في كل طبلية صحناً كبيراً أو صحنين ليغرف أحد أهل الطبلية، ويُقسّم على الجميع، فيعطى كل إنسان في صحنه شيئاً يقطعه بالسكينة التي قدّامه، ثم يوصله إلى فمه بالشوكة لا بيده، فلا يأكل الإنسان بيده أصلاً، ولا بشوكة غيره أو سكينته، أو يشرب من قدحه أبداً، ويزعمون أن هذا أنظف وأسلم عاقبة"(١).

ويذكر رفاعة كيف يفتتحون طعامهم بتناول الشوربة، فاللحوم، ثم تتابع ألوان الطعام، حتى ينتهوا بتناول الحلوى أو الفاكهة، وتُقدم أطباق الطعام مُتعاقبة لا مجتمعة، فعندما ينتهون من تناول الشوربة، يُقدم طبق اللحم،وبعد الانتهاء من هذا الطبق يُقدم الطبق الذي يليه(٢). فلا توضع هذه المآكل مجتمعة على سطح المائدة في آن واحد، بل تُقدّم متعاقبة الواحد تلو الآخر وهكذا.

---

(١) تخليص الإبريز ٥٤.
(٢) انظر: المصدر السابق ٥٥.

ويذكر رفاعة مراعاة الجميع لهذه الطرائق في تناول الطعام، فهي تقاليد مُتّبعة لدى عامة الناس وخاصتهم، غنيهم وفقيرهم على السواء[١].

وهي بلا شك تتسم بالتعقيد، ولا تدل بالضرورة – لدي– على الرقي والرفاهية والتحضر. ومن الأفضل بالنسبة لي وضع الطعام جميعه أمام المرء ليأكل منه ما يريد، فأسلوب تعاقب الطعام، طعاماً تلو طعام، مُضيعة للوقت، وأدعى لتكسّر الأطباق في مجيئها ورواحها.ولكن لما كان الغرب –كما يُؤكد رفاعة– ومنذ ذلك العهد المبكر، أناساً دنيويين، لا حظّ لهم من الدين إلا الاسم[٢]، فهم متعمقون في المتع واللذات، لذلك جعلوا لكل متعة ولذة تقاليد وطرائق دقيقة، وهذا من باب التعقيد.

وتتعدد الملاعق الخاصة للفرد الواحد، فملعقة كبيرة للطبق الرئيس، وملعقة صغيرة لطبق الحلوى، وشوكة لطبق، وشوكة أخرى لطبق آخر.. وهكذا تتنوع الملاعق والشوك والسكاكين بحسب نوع الطعام، فللطعام– كما للرقص والموسيقى وكافة العادات والتقاليد – أصول وقواعد، ويحكمها ما يسمى بالبروتوكول الذي قد يشكل على الإنسان العربي القادم من أرض وبيئة البساطة وعدم التكلف في أساليب العيش.

---

(١) انظر: المصدر السابق٥٥.
(٢) انظر: المصدر السابق ١٨٣.

وقد ذكر طه حسين بعض تجاربه الأولى ومعاناته حول هذا الموضوع، ففي أثناء قدومه لفرنسا على ظهر الباخرة، اقتضى منه تناول الطعام أن يلزم غرفته بسبب جهله بأصول تناول الطعام:

"وقد لزم الفتى غرفته منذ دخل السفينة إلى أن خرج منها، لم يذهب إلى غرفة المائدة، وكيف يذهب إليها و هو لا يُحسن استعمال تلك الأدوات التي يستعملها الناس حين يطعمون، ولا يستطيع أن يأكل أمام المسافرين من الأوروبيين بيديه كلتيهما أو إحداهما، كما كان يصنع في مصر؟"(١).

فلم يكن طه حسين متعوداً على الأكل بالشوك والسكاكين، بل حتى بالملاعق، وهي أكثر استعمالاً وشيوعاً.

ولكن سرعان ما تذللت هذه المصاعب البسيطة بإرادة الفتى القادرة على تطويع العقبات مهما كانت.

ومنذ بدايات عيشه بأوروبا، صار يفكر بحاله: كيف كان، وكيف صار، مُستشعراً الهوة العميقة التي تفصل بين هذين العالمين، العالم الذي قدِم منه، والعالم الذي يعيش فيه، وحين يوازن: "بين حياته تلك وبين الحياة الجديدة التي أخذ يحياها في هذه المدينة الفرنسية، لا يحس جوعاً ولا حرماناً، يُحمل إليه فطوره إذا أصبح ناعماً ليناً لا خشونة فيه ولا

(١) الأيام ٣/ ٥٢٤.

غلظ، فإذا جاءت أوقات الطعام في وسط النهار وفي آخره، وجد في اختلاف الألوان وتنوعها ما يذكره بطعامه ذاك المتشابه حين كان يغمس خبزه في عسله ذاك الأسود مصبحاً وممسياً، وحين كان يحب أن يتخفف من طعامه ذاك أحياناً، ويخالف عن حلاوته البغيضة إلى شيء آخر، فلا يجد إلا ذلك الطعام الغليظ الذي كان الأزهريون يعيشون عليه في تلك الأيام. فإذا أحب أن يتفكه فلا منصرف له عن البليلة في الصباح، والتين الغارق في الماء إذا كان المساء أو الضحى، وأين ذلك الطعام الغليظ من هذه الألوان المترفة الرقيقة التي كانت تُعرض عليه في غدائه وعشائه من غير تقتير ولا تضييق"؟[1].

ونشعر من خلال هذه الموازنات بعمق تأثر الفتى/ طه بموائد الحضارة الأوروبية في مظاهر العيش وأسباب الترقي.

ومن الإشارات المبكرة المتعلقة بالطعام كذلك ما ذكره رفاعة الطهطاوي بأن الطعام لدى الغرب – وإن كان يمتاز بالشكل الجميل المتأنق واللون الزاهي، ويُقدم في أوان خزفية متألقة –، إلا أنه لا يعدو أكثر من ذلك، فلا طعم ولا ذوق يستلذ المتذوق.[2]

(١) المصدر السابق ، ٣/ ٥٣١ + ٥٣٢.
(٢) انظر: تخليص الإبريز ١٣٣.

أما استعمال البهارات والتوابل في الطعام فهو استعمال خـــارجي، فلا يطهى مع الطعام ويتغلغل فيه. وقد عانى محمد عناني مـــن رائحـــة القرنبيط والكرنب الذي يصل إليه من الغرفة المجاورة له لفتـــرة مـــن الزمن في بداية مجيئه لبريطانيا:

"وانقضى أكتوبر، وأنا أتحمل رائحة القرنبيط والكرنب المسلوق، وهم لا يضيفون إليه الكمّون الذي يُذهب بالرائحة، ولا يطبخونه بطريقتنا بل يسلقونه سلقاً، وكانت الرائحة تملأ البيت في الســـماء، ومـــا كـــان أبغضها وأقبحها"(١).

*****

ومن العادات التي تميز شعباً عن غيره: أساليب التعاملات المالية فيما بين أفراده. فالنظرة إلى المال وتقديره، وكيفية التعامـــل بـــه مـــع الآخرين تحمل دلالات عقلية ونفسية مهمة في تقويم الشعوب لبعضها..

والقصة المشهورة عن عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – حين جاءه شاهد يشهد عنده ، قال له عمر: "إني لست أعرفك، ولا يضـــرك أني لا أعرفك، فائتني بمن يعرفك، فقال رجل: أنا أعرفـــه يـــا أميـــر المؤمنين، قال: بأي شيء تعرفه؟ فقال: بالعدالة. فقال عمر: هل هـــو جارك الأدنى تعرف ليله ونهاره ومدخله ومخرجـــه؟ قـــال: لا. قـــال:

(١) واحات الغربة ٢ / ٣١ ، ٣٢.

فعاملك بالدرهم والدينار الذي يستدل بهما على الورع؟ قال: لا. قال: فصاحبك في السفر الذي يستدل به على مكارم الأخلاق؟ قال: لا. قال: فلست تعرفه، ثم قال للرجل: ائتني بمن يعرفك".[1]

وترى هذه المقولة الحكيمة لعمر– رضي الله عنه – أن التعامل المالي مع الآخرين سبيل من سبل معرفة الناس في صدقهم وأمانتهم ونزاهتهم وأخلاقهم وأريحيتهم في هذا الجانب المهم من الحياة، وما يتصفون به من جود وكرم، أو بخل وحرص.

- بداية يقر رفاعة الطهطاوي – ومنذ أكثر من مائتي عام – بأن الكرم سجية عربية، إذ لا يوجد عند الأعاجم كرم، بل لا يعرفونه.

يقول:

"وليس عندهم من المواساة إلا بأقوالهم وأفعالهم، لا بأموالهم، إلا أنهم لا يمنعون عن أصحابهم ما يطلبون استعارته، لا هِبته، إلا إذا وثقوا بالمكافأة، وهم في الحقيقة أقرب للبخل من الكرم، وقد ذكرنا علة ذلك في ترجمتنا مختصر السير والعوائد، في ذكر الضيافة، وفي الحقيقة أصل السبب: هو أن الكرم في العرب"[2].

---

(١) الحديث بتخريج محمد ناصر الدين الألباني. انظر: إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل. إشراف: محمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي ، بيروت ط١/ ١٣٩٩هـ ، ٨ / ٢٦٠.
(٢) تخليص الإبريز، ٨٣.

وهذا الرأي عندي حقيقة ناصعة، وهي أن الكرم سجية عربية خالصة، وإذا كان لدى بعض الشعوب كرم أو ما يشابهه، فهو عندي جرّاء تلاقي الشعوب والثقافات بعضها ببعض في الآماد والعصور السالفة، وانتقلت فيما انتقلت بينهم بعض الخصائص والفضائل، وهذه من الأمور المعروفة عند تجاور وتعايش الشعوب مع بعضها. وأشهر شخصية عربية ترمز للوفاء السموأل بن عادياء[1]. وهو يهودي، ومع ما عُرف عن اليهود من الغدر ونقض العهود، إلا أن السموأل- وبانتمائه للبيئة العربية – تخلّق بالفضائل العربية الأصيلة، وجرى معه ما جرى في قصته المعروفة، حتى غدا رمزاً للوفاء عند العرب فيُقال: أوفى من السموأل.

ومن الأمثلة الداعمة والمؤيدة في هذا الجانب وهذا الرأي، ما ذكره يحيى حقي في أثناء إقامته بإيطاليا طيلة أربع سنوات في العمل الدبلوماسي، عندما استأجر في بداية مجيئه غرفة بمنزل سيدة إيطالية لطيفة المعشر، يقول:

---

(١) السموأل بن غريض بن عادياء وهو شاعر يهودي، ثري وتاجر من بلاد تيماء شمال الجزيرة العربية، وفيها حصن عتيد بناه أجداده وهو المشهور بحصن السموأل ،أو ما يُعرف بالأبلق الفرد، ومختصر القصة أن الشاعر الجاهلي امرؤ القيس كان قد أودع أمانة لدى السموأل ،وهي مائة درع ،فجاءه الحارث بن ظالم ليأخذها منه، فتحصن السموأل داخل الحصن ،وأبى أن يسلمه الأمانة ،فأخذ الحارث ابناً للسموأل كان في الصيد ،وقال للسموأل: "إما أن سلمت الأدرع إلي وإما قتلت ابنك" فأبى السموأل أن يسلم إليه الأدرع ،فضرب الحارث وسط الغلام فقطعه قطعتين ،وفي هذا قال السموأل:

وفيت بذمة الكندي إني إذا ماذُمّ أقوام وفيت

انظر القصة الكاملة في: الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني (ت ٣٥٦هـ)، مؤسسة جمال للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦٣م، ١١٩/٩.

"وسكنت في هذه الحجرة المفروشة، وكنت أتناول طعامي عنـــدها أحياناً، وتقدم لي القهوة أحياناً، وقد كنت أتكرم وأهديها بعـــض باقـــات الزهور في الأعياد وعلب الشيكولاتة والبسكويت أيضاً. ولكن في يـــوم من الأيام زارني صديق، فطلبت له فنجان قهوة، فإذا بها حينما قدّمت لي الفاتورة أول الشهر، وجدتها وضعت فيها خمسين سنتاً أي خمس قروش ثمن القهوة، فأدركت وقتها الفرق ما بـــين العقليـــة الشـــرقية والعقليـــة الغربية"(١).

ويحيى حقي هنا مثله مثل الكثيرين من العرب، بل العرب بصفة عامة، الذين يحبون تهادي الهدايا، ويعرفون مفعولها في تلطيف وتليـــين الطباع، ليس من باب النفاق والتزلف، بل من باب بعث الألفة والمـــودة بين الناس، وفي الحديث الشريف "تهادوا تحابوا"(٢) فالهدية عنوان مباشر وسريع للتواصل الإنساني الدافئ، هذا ما نعرفه نحن كشـــعوب عربيـــة مسلمة شرقية.

ولكن هذا المفهوم لا ينطبق بالضرورة على الشعوب الأخرى، مع أني أظنها معروفة وسائرة لدى الشرقيين عامة.

---

(١) ذكريات مطوية، ١٠٦.

(٢) الحديث بلفظ "تهادوا تحابوا، وتصافحوا يذهب الغلُّ عنكم" رواه ابن عساكر
انظر: مختار الأحاديث النبوية والحِكم المحمدية، السيد أحمد الهاشمي، دار الفكر للطباعة والنشر،٦٢.

وعندما سافرت هالة سرحان إلى الولايات المتحدة لدراسة الدكتوراه والتدريس كذلك، حملت معها بعض الهدايا والتذكارات الفرعونية الجميلة لإهدائها لأعضاء القسم كبداية طيبة للتعارف، تقول:

"لم أكن أتوقع أو أتخيل أو أتصور علامات الاستفهام والدهشة على وجوه الأساتذة والزملاء حين قدّمت هداياي المصرية.

كانت العيون تلمع بالاستفسار والتوجس:

بمناسبة إيه؟ لم أفهم، كيف لا يقدّرون أن القادم من السفر لابد أن يقدم هدايا..! كانت عبارات الدهشة تفوق كلمة شكر "Thank you"... وتحولت الهدية إلى قضية مُحرجة للغاية"(١).

وهكذا من التجارب المشابهة، وأعتقد أن يكون لعامل اختلاف الثقافات والأمزجة كذلك دور حاسم في تقبّل الهدية أو رفضها.

والواقع أن الغرب يتعامل مع المال بوعي وتقدير كبيرين، وهو لايعترف بالمقولات الشائعة لدينا:

- أنفق ما في الجيب يأتيك ما في الغيب، وكل يوم يأتي يأتي رزقه معه.

---

(١) أمريكا خبط لزق ١٤، ١٥.

وغيرها من المقولات العربية التي تدل على الإيمان والطمأنينة بالتوكل على الله تعالى. وهذا بنظري هو الأمر الصحيح المطلوب والذي ينبغي أن يكون عليه المؤمن في حاله وسعيه لطلب الرزق.

وقد ذكر محمد عناني أن الإنجليز يربون أولادهم على تقدير المال منذ الصغر:

"من المبادئ الأساسية التي يُلقنها الأهل للطفل، مبدأ القسمة الثلاثية، ومعناه تقسيم الدخل إلى ثلاثة أجزاء: جزء يُنفق على المسكن، وجزء ينفق على المعيشة (المأكل والملبس والمواصلات... إلخ)، وجزء يُدَّخر! ومنذ السنوات الأولى في حياة الطفل يعلمه الأهل أن يدخر قسماً من مصروفه في "الحصالة"، ثم أن يتخذ لنفسه دفتر توفير في مكتب البريد أولاً، ثم في البنك بعد ذلك (أو في جمعيات الإسكان).

وهكذا يميل الطفل إلى الحرص على ماله، خصوصاً وأنهم يعدّونه من البداية للاستقلال، فحالما يبلغ السادسة عشرة، يصبح عليه أن يعتمد على نفسه، إما بالعمل، أو الإسهام في نفقات المنزل، أو الاستقلال والحياة بعيداً عن الأسرة"(١).

وتربية الطفل من البدايات الأولى على مثل هذه الأساليب وما يشابهها، كفيل بتنمية قدراته الإدارية وتطوير شخصيته، فهو المسؤول

(١) واحات الغربة ٢ / ١٧٧.

عن إدارة ماله الخاص، وهذه المسؤولية تمتد لسنوات، فيصبح إلى حـــدٍ كبير مُتمرساً في التعامل الجيد مع النقود، وهذا أسلوب تربـــوي ذكـــي لمعرفة قيمة المال، وتنمية الشخصية في آن معاً.

*****

البخشيش:

من التقاليد الغربية المعروفة في التعاملات الماليـــة، مـــا يُعـــرف بالبخشيش، والبخشيش كلمة فارسية[١] وهي:

إكرامية نقدية بسيطة لقاء الخدمة التي يتلقاها المرء فـــي أمـــاكن المرافق الخدمية، كالمقاهي والمطاعم والفنادق والمطارات، ونحو ذلك.

ولا تُعدّ هذه الإكرامية في الغرب تفضلاً وتبرعاً طوعياً من تلقاء الفرد، إن شاء منح، وإن شاء منع، بل هي عُرف شبه إجباري، فالنادل في المطعم من حقه نسبة محدودة من قيمة الفاتورة التي يدفعها الزبون، وهذا ما أدهشني فعلاً، إذ إن البخشيش في بلادنا العربية لـــيس تقليـــداً شائعاً ومتعارفاً عليه بهذه الصورة، ولكنه في الغرب كذلك.

---

(١) ذكر العلّامة أحمد عيسى بك ، كلمة بقشيش من أنها كلمة فارسية. وتُنطق في بعض البلاد بخشيش. وهي مايُعطى إكرامية.
انظر: المحكم في أصول الكلمات العامية. أحمد عيسى بك. القاهرة ط١/ ١٣٥٨هـ ، ٣٧.

وتحدثت هالة سرحان عن صديقاتها الأمريكيات فيكي و ســـاندي ونانسي، وهن طالبات جامعيات يعملن نادلات في المطعم لتوفير تكاليف الدراسة، "لأن هذه هي الوظيفة المثالية لكسب المال الحلال دون قهـــر الضرائب الأمريكية المفترسة وكان شعارهن: بالبقشيش نعيش"[١]

فكثير من عاملي المطاعم ونحوها، بلا راتب يقبضونه آخر الشهر أو الأسبوع، وما يُحصلّونه من البخشيش هو المال الذي يجنونه من هذه الوظيفة.

الرقص:

من العادات الاجتماعية الشـــائعة جـــداً فـــي المجتمعـــات الغربيـــة الرقص.[٢]

والرقص بشكلٍ عام معروف ومنتشر في سائر المجتمعات شرقية كانت أم غربية، بل إنه موجود ومعروف عند أكثر البيئات الاجتماعيـــة انعزالاً وبدائية.

---

(١) أمريكا خبط لزق ٤٨.

(٢) غالباً ما يذكر الرقص مترافقاً مع الموسيقى ،إلا أنني آثرت إدراج الموسيقى في المناحي الثقافية الخالصة ،وأدرجت الرقص ضمن العادات والتقاليد، فالموسيقى ثقافة متأصلة في الغرب تدرس للطلاب منذ الصغر ، بينما لا ينطبق هذا التشديد مع الرقص المعروف والمنتشر في جميع الشعوب.

ولكن المجتمعات الغربية أعلت مكانة هذا الطقس الاجتماعي، ورفعت من شأنه وأهميته، حتى خصصت له كليات جامعية متخصصة.

وقد تناول مصطفى عبد الرازق، ومن قبله رفاعة الطهطاوي، موضوع الرقص، حيث تحدث عن مفهوم الرقص، وعن ولع الفرنسيين وتعلقهم به، فقال:

"إن الرقص لدى الفرنساويين فن من الفنون، ولا يعد من الفسق، فلذلك كان دائماً غير خارج عن قوانين الحياء، بخلاف الرقص في أرض مصر، فإنه من خصوصيات النساء؛ لأنه لتهييج الشهوات"(١).

"ولسنا نعرف قوماً من البشر لا يرقصون، أهل البداوة لهم رقصهم ساذجاً غير متوازن، وأهل الحضارة لهم رقص أكثر نظاماً، وأحسن انسجاماً، ولا تخلو الأمم من الرقص إلا فترات في عهود الانقلابات الخطيرة، أو الفتن العاصفة... ففي الرقص جمال ولذة، ومن الجور أن تنقص حظ الإنسانية من اللذة والجمال، فليكن هذا المتاع فناً من فنون الجمال تحتفي به طائفة تبرع في أساليبه وتمتع الآخرين بآثار براعتها(٢)."

(١) تخليص الإبريز، ١٤٣.
(٢) مذكرات مسافر، ٢٥. بتصرف يسير.

والواقع أن حديث الشيخ عبد الرازق عن الرقص فيه درجة من المنطق والعقل. ولكن الورع يأبى أن يخالط الرجال النساء في عملية الرقص والتراقص، فلا بأس بأن يرقص كل جنس مع نظيره من غير اختلاط، يؤدي إلى عواقب لا تحمد عقباها.

فالرقص المختلط أدعى لإثارة المشاعر، بل هو كما وصفه زكي مبارك: "هادم لصروح الأخلاق"[1]، وذلك عندما حضر وشاهد حفلات الرقص في الميادين العامة في أثناء الاحتفال بيوم الاستقلال الفرنسي.

*****

(١) ذكريات باريس ٢٢٠.